الفصل الأول

الرحلة الحجازية أداة التواصل الثقافي

أ.د / مليكة الزاهدي(*)

تقديم

اشتهر المغاربة بالسفر والترحال منذ القدم وقد لعب الموقع الجغرافي للمغرب دوراً حاسماً في تكريس هذه الشهرة، نظراً لبعده عن الحجاز والشرق من جهة، وقربه من أوربا من جهة ثانية.

ولم يكتف هؤلاء الرحّالون بالسفر فحسب بل حرص بعضهم على تدوين تجاربهم. وهكذا احتلّ "أدب الرحلة" مكانة هامة في الأدب المغربي بعدما اغتنت الخزانة المغربية بقدر وافر من الرحلات التي تنوّعت أهدافها ومواضيعها والحافز لكتابتها، وقد صنّفها المهتمون إلى رحلات سياحية، وصوفية، وسفارية، وعلمية، وحجازية... الخ. وقد تكون الرحلة الواحدة جامعة لعدة أغراض.

هذا التنوع في المضمون جعل أدب الرحلة منفتحاً على باقي العلوم الإنسانية وفي كثير من الأحيان يصبح جزءاً منها كالجغرافيا[1] والتاريخ. لقد أثبت البحث التاريخي في المغرب، أن "الرحلة" بمختلف أصنافها أصبحت مصدراً أساسياً يساهم في مقاربة بعض القضايا التي قد لا تحيط بها كتب التاريخ الصرفة، كالبحث في قضية التواصل الحضاري بين الشعوب والاحتكاك بين مختلف الثقافات من جهة، أو التفاعل والتكامل داخل الثقافة الواحدة. وهي القضية التي يطرحها اليوم، هذا اللقاء العلمي.

(*) أستاذ التاريخ الحديث ـ جامعة الحسن الثاني ـ كلية الآداب ـ المحمدية ـ المغرب.

(١) عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، منشورات دار الفكر، دمشق، طبعة أولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤ م. اعتمد المؤلِّف في كتابه على مجموعة من الرحلات المغربية كرحلة العبدري (ص ٤٩٦)، ورحلة ابن بطوطة (ص ٥٦٤)، ورحلة أبي سالم العياشي (ص ٦٤٧).

فغالباً ما ساعدتنا كتب "الرحلة السفارية"[٢]، وخاصة تلك التي قصد مؤلّفوها أوربا المسيحية، في استجلاء مظاهر الحضارة الغربية كما احتك بها ونقلها المغربي المسلم خلال العصور الحديثة[٣].

غير أن أشهر وأقدم رحلات المغاربة هي تلك التي شدّوا فيها الرحال إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، والتي غالباً ما اقترنت بطلب العلم أو بأغراض سفارية بالنسبة لمن كانوا من رجال المخزن. فأصبحت الرحلة الحجازية أداة معبّرة عن التفاعل الحاصل بين المغرب والمشرق، ليس فقط الديني، بل الاجتماعي، والسياسي، والثقافي...

- قراءة حول الرحلات الحجازية المغربية خلال العصر الحديث:

اتسع نطاق الصلات المتبادلة بين المغرب والمشرق منذ أن أصبح المغرب جزءاً من دار الإسلام، عبر تفعيل المغاربة لفريضة الحج وما يصحب ذلك عادة من زيارة قبر الرسول ﷺ والأماكن المقدسة التي لها اعتبار خاص عند المسلم. وهكذا استقطب هذا الهدف الديني أغلب الرحلات حتى ساد العرف لدى المغاربة بأن الرحلة إلى الشرق تعني الحجّ في الأساس[٤]. فقد أفادنا الاصطخري[٥] الذي عاش في القرن الرابع الهجري (١٠ م) في كتابه مسالك الممالك بأن حجاج المغرب الأقصى يبدءون رحلتهم في المحرّم فيقضون قرابة السنة في طريقهم إلى الديار المقدسة. هذا السفر الطويل غالباً ما جعلهم يعبرون كل البلدان

(٢) تتوفر في الخزانة المغربية عدة رحلات سفارية، قضى مؤلّفوها فترات متباينة، لقضاء أغراض سفاية، في أوربا. فجاءت هذه النصوص معبرة عن الانطباعات والتأثيرات التي خلّفتها الحضارة الغربية في عقل ووجدان هؤلاء المغاربة الذين هم في آخر المطاف جزء من الحضارة العربية الإسلامية. ونذكر منها:

- § ناصر الدين على القوم الكافرين، لأحمد بن قاسم الحجري، سفير سعدي إلى فرنسا وهولندا، ألفها عام ١٦٣٧، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، ١٩٨٧.
- § رحلة الوزير إلى فكاك الأسير، لعبد الوهاب الغساني، سفير المولى إسماعيل العلوي لدى كارلوس II ملك إسبانيا، نشرها ألفريد البستاني، طنجة، ١٩٤٠.
- § نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، لأحمد المهدي الغزال، سفير سيدي محمد بن عبد الله إلى إسبانيا عام ١٧٦٦ م، تقديم وتحقيق، إسماعيل الغربي، بيروت، ١٩٨٠.
- § البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأساري من يد العدو الكافر، لمحمد بن عثمان المكناسي، سفير محمد بن عبد الله إلى مالطة ونابولي عام ١٧٨١ م، دراسة وتحقيق مليكة الزاهدي، ١٩٩٥ (ستصدر قريباً).

(٣) عبد المجيد قدوري، سفراء مغاربة في أوروبا، منشورات كلية الآداب، الرباط، ١٩٩٥.
سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرّحلة، منشورات كلية الآداب، الرباط، ١٩٩٥.

(٤) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٩٠، ج ١، ص. ٦٩.

(٥) هو أبو إسحاق إبراهيم محمد الفارسي الاصطخري (ت. ٣٤٠ هـ/ ٩٥١ م) قضى قسطاً كبيراً من حياته في ارتياد العالم الإسلامي، وخاصة أقطار آسيا حتى بلغ إلى سواحل المحيط الهندي. عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص. ١٩٩.

الواقعة شرق المغرب بدءاً بالجزائر، فتونس، وطرابلس، ومصر، والشام، والحجاز حسب السبل المتعارف عليها لدى ركب الحجاج.

غير أن أقدم الرحلات الحجازية المعروفة ارتبطت بالعصر المريني[٦] كرحلة العبدري[٧]، ورحلة ابن بطوطة[٨] التي حظيت بشهرة وانتشار كبيرين، ورحلة ابن رشيد[٩]. فقد خرج هؤلاء الرجال، ليس فقط لأداء فريضة الحج، ولكن لطلب العلم فانطبقت عليهم قولة الدكتور معن زيادة الذي يرى بأن طالب العلم "يمتلك القدرة على تنشيط الحوار بين الثقافات وتمكين الشعوب من الإفادة بعضها من بعض"[١٠]، فأصبحت بفضلهم "الرحلة الحجازية" المغربية أداة تنعكس فيها ومن خلالها المميزات الفكرية والثقافية لعصرهم.

لقد كانت الثقافة المغربية خلال العصور الوسطى تدور في فلك الأندلس التي كانت بمثابة الأستاذ بالنسبة للمغرب لأنها احتضنت الثقافة العربية الإسلامية قبله[١١]، فاستقطبت إليها طلاّب العلم من المشرق وكان المغرب آنذاك طريقاً إلى الأندلس. ولقد اعترف العلاّمة عبد الله كَنون، وهو من أشد المدافعين عن الثقافة المغربية، بهذا التفاوت الثقافي الذي حدث بين المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى، وعلّل ذلك بالعوائق الكثيرة التي حالت دون السير المضطرد للآداب العربية بالمغرب[١٢]، وكان في مقدمتها، تلك الأحداث

(٦) لا نتوفّر في الغرب الإسلامي كله إلا على رحلتين مدوّنتين ترجعان لما قبل العهد المريني وهما رحلة ابن العربي ورحلة ابن جبير. وهذا لا يعني عدم سفر المغاربة إلى الشرق، بل فقط لأن معظمهم لم يهتم أو لم يأنس في نفسه الجرأة الأدبية لتدوين رحلته.

(٧) هو أبو عبد الله العبدري، متحدّر من أسرة قرشية نزلت بإقليم حاحا من المغرب، سافر لأداء فريضة الحج عام ٦٨٨ هـ كهدف أساسي مقرون بطلب العلم الذي بدأه من تلمسان والقيروان وطرابلس الغرب ثم الإسكندرية. وقد اهتم بوصف الظّروف التي تحيط بركب الحجاج المغاربة. فألّف رحلته المعروفة باسم الرّحلة المغربية، قدم لها وحققها العلاّمة محمد الفاسي، ونشرت ضمن منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٨.

(٨) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطّنجي الشهير بابن بطوطة (٧٠٣ ـ ٧٧٩ هـ/ ١٣٠٤ ـ ١٣٧٧ م) صاحب الرحلة المشهورة أيضاً، تحفة النّظّار في غرائب الأمصار، شرحها وكتب هوامشها طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٩) ابن رشيد الفهري السبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، الجزء الخامس الخاص بالحرمين الشريفين مصر والإسكندرية، تقديم وتحقيق الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.

(١٠) معن زيادة، الرحلات العربية والرحّالين، مجلة الفكر العربي، يونيو، العدد ٥١، السنة ٩، ١٩٨٨، المقدمة، ص. ٥.

(١١) محمد زنيبر، التبادل الثقافي بين المغرب والأندلس، مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد ١٦، ١٩٩١م، ص. ٩.

(١٢) كتب عبد الله كَنون يقول "لقد سارت العربية في المغرب، أول الأمر، بسير الإسلام مترسمة خطاه، متتبعة آثاره، إنّها لو كانت بقيت من ذلك الوقت تنمو وتثمر لكانت الآداب العربية قد أتت أكلها من ذلك الوقت. ولكن عوائق كثيرة حالت دون سيرها المطّرد". النبوغ المغربي، بيروت، ١٩٧٥، ص. ٤.

السياسية التي شغلت الدولة المرابطية مع بداية حروب الاسترداد بالأندلس، وكان الشأن ذاته بالنسبة للدولة الموحدية، فانعكست هذه الظروف على الثقافة المغربية شكلاً ومضموناً وتوجُّهاً[١٣].

لكن دور الأندلس الثقافي ما فتئ يتراجع بسبب ما كانت تتخبّط فيه من جراء الدفاع عن وجودها أمام هجمة الاسترداد التي قادها الغرب المسيحي بلا هوادة. وهكذا برز دور المغرب ابتداء من القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي ـ على الأقل ـ وخاصة إبّان الحقبة الأولى من عمر الدولة المرينية عندما انتعشت الحياة الثقافية وشهد هذا العصر حركة وتجوالاً، ونشاطاً فكرياً حتى لم يعرف العلماء استقراراً بمكان معين، بل جابوا الأقطار وقصدوا المراكز الثقافية التي تغص بالعلماء وساد الاقتناع بأن الرحلة كما يذكر ابن خلدون "لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ، ومباشرة الرّجال"[١٤]، وهذا ما جعلها تكاد تكون شرطاً من شروط التحصيل، وقتها أصبحت الرحلة الحجازية تتجاوز الهدف الديني المعلن عنه، إلى طلب العلم. فاستفاد الحجّاج وطلاّب العلم المغاربة من الازدهار السياسي النّسبي الذي تحقق مع السلاطين المرينيين[١٥] الأوائل كتأمين السبل وإصلاحها، مع إشراف الملوك أنفسهم على تنظيم ركب الحجاج المغربي من خلال تهيئ لوازمه والتكفل بحمايته حتى يصل إلى مصر حيث يتكفل أهل مصر بحمايته وتيسير سفره إلى الحجاز[١٦]. في خضم هذه الظروف تنقّل المغاربة المهتمون بربط السند العلمي إما مشافهة أو إجازة أو دراسة بعلماء المشرق ومنهم:

(١٣) هذا لا يعني أن هذا العهد لم يشهد نهضة فكرية، لكنها لا تقاس بما كانت تعرفه الأندلس، لقد كانت كل دولة تنهج سياسة فكرية أساسها تقريب العلماء وتشجيع إنتاجياتهم، وجلب الكتب النادرة، فقد رحل المغاربة بأعداد كثيرة في العهد الموحدي إلى المشرق لأهداف دينية، وعلمية، وسياحية وتجارية ومنهم من رجع ومنهم من استقرّ ودرّس العلم للمشارقة، كالعالم أبي بكر بن علي بن ياسر الأنصاري الذي استقر بمصر حتى مات بها عام ٥٧٥ هـ. وهو صاحب كتاب "الْمُغرب في أخبار محاسن أهل المغرب". عز الدين أحمد موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، طبعة أولى، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م، ص. ٤٢.

(١٤) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، طبعة رابعة، ١٩٨١، ص. ٥٤١.

(١٥) اهتم العلاّمة المرحوم محمد المنوني بذكر الدور الذي لعبه العديد من أعلام دكالة في بداية العصر المريني في تنشيط الصلات الثقافية بين المغرب والمشرق، وذكر منهم جماعة أبي محمد صالح دفين آسفي، كان شيخاً لطريقة يدعو الداخلين إليها بأداء شعيرة الحج ولا يعذر تركها بالعجز والفقر. فأدت هذه الدعوة إلى نشاط حركة الحج، بل إن بعض مريديه أقاموا بالشام ومصر والحجاز. وكان لهم اتصال بالعديد من أشياخ المغرب. ومنهم أبو القاسم سحنون، الدّكالي، الذي توفي بالإسكندرية عام ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٦ م، وكان مفتياً ومقرءاً بها. ومن بين الأسر العلمية التي ربطت المغرب بالمشرق في هذا العهد ذكر أسرة النّقاش الدّكالي التي استقرت بالقاهرة، وأسرة عبد المومن الدكالي التي استقرت بمكة المكرمة.
محمد المنوني، دور أعلام دكالة في ربط الصلات الثقافية بين المغرب وجهات من العالم الإسلامي، مجلة دعوة الحق، عدد ٢٥١، ذو الحجة، ١٤٠٥ هـ/ غشت ١٩٨٥ م، ص. ٢٨ ـ ٢٩.

(١٦)كتب الأديب خليل الصفدي عن النّاصر ابن قلاوون صاحب مصر جواباً إلى السلطان أبي الحسن المريني سنة ٧٤٥ هـ، يؤكد فيها التزام مصر بتعهداتها تجاه الحجاج المغاربة ومما جاء فيها: "وإذا وصل وفدكم الحاج، وأنار له بوجه إقبالنا عليهم ليلهم الدّاج، كانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا، وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا وإذا كان أوان الرّحيل إلى الحج فسحنا لهم الطريق، وسهّلنا لهم الرفيق... وإذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة ذلك الدرب ويخيل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب". أحمد المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص. ٣٩٨.

- ابن رشيد ورحلته (ملء العيبة) نموذجاً.

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، ولد سنة ٦٧٥ هـ، وكانت مدينة سبته وقتذاك تشهد ازدهاراً علميا برعاية رؤسائها بنو العزفي[١٧]. بدأ تحصيله العلمي من سبته على يد علماء كثيرين سبتيين ووافدين[١٨]، فحصّل مختلف علوم عصره كعلم القراءات والتفسير والحديث، والنحو والأدب، ولم يكتف بما أخذه من العلم بسبتة وفاس، فكانت الرحلة وسيلة لتحقيق غاياته، فرحل في البداية إلى غرناطة وأقام بها خطيباً معَظَّماً مقبولاً يقرئُ بها فنوناً من العلم[١٩]، فاتخذها وطناً جديداً لم يغادرها إلا عام ٧٠٨ هـ[٢٠]. فاجتذبته شهرته العلمية مرة أخرى إلى المغرب حيث عاد للخطبة والصلاة في الجامع العتيق بمراكش ثم انتقل إلى فاس وقضى بها بقية حياته حتى توفي عام ٧٢١ هـ.

بلغ ابن رشيد مكانة علمية في بلاده جعلت ابن الخطيب يثني على منهجه وسعة علمه بقوله: "كان واسع الأسمعية، علي الإسناد، صحيح النقل، أصيل الضبط، تام العناية بصناعة الحديث قيماً عليها بصيراً بها محققاً فيها ذاكراً فيها للرّجال"[٢١]. ولم تتوقف سيرته عند طلب العلم فقد شغل مناصب التدريس، والإمامة، والخطابة، والقضاء. وجاءت تآليفه، التي بلغت سبعة عشر مؤلفاً، لتؤكد سعة علمه، فقد كانت كلّها في العلوم الإسلامية والأدبية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- تقييد في كتاب سيبويه.
- تلخيص القوانين في النحو.
- حكم الاستعارة.
- إفادة النّصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح للبخاري.
- المحاكمة بين البخاري ومسلم.

إلاّ أن أشهر مؤلّفاته هي رحلته المسماة "ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة" .ـ والعيبة وعاء من خوص أو أدم يكون فيه المتاع ـ.

(١٧) بنو العزفي هم حكام سبته وقد كانوا يتبعون للدولة المرينية في بداياتها تبعية اسمية.
(١٨) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب، ج ١، ص. ١٤٣.
(١٩) لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة بأخبار غرناطة، ج ٣، ص. ١٣٧.
(٢٠) هذه السنة هي سنة مقتل رفيقه في رحلته وولي نعمته الأديب ذو الوزارتين ابن الحكيم اللخمي الرّندي.
(٢١) لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٣، ص. ١٣٥.

كتبها في عدة أسفار وقع الاختلاف حول عددها، وإنّنا في هذا العرض اعتمدنا الجزء الخامس الذي ضمّنه ابن رشيد أخبار تنقلاته وإقامته في الحرمين الشريفين ومصر والإسكندرية[٢٢].

لقد تجاوزت هذه الرحلة مجرد إمتاع القارئ بوصف الأماكن والناس والعادات إلى الإفادة العلمية البحتة، وجاءت دليلاً على مكانة مؤلّفها العلمية حتى أنها باتت منذ تأليفها مصدراً متداولاً بين العلماء المعاصرين لابن رشيد كابن شبرين وابن الخطيب وغيرهم.

واليوم نعتمد هذه الرحلة التي يتجلّى في مضمونها ذلك التكامل المعرفي الذي حصل بين المغرب والمشرق، بفضل رجال في كفاءة ابن رشيد. وبما أن المجال لا يتسع للحديث عن جل محتوياتها اكتفينا بهذه القراءة المتواضعة في إقامته في مصر وما صاحبها من فائدة علمية.

- ابن رشيد في مصر

انطلقت رحلة ابن رشيد إلى الحجاز عام ٦٨٣ هـ من مدينة ألمرية بالأندلس[٢٣]، وقد مرّ بتونس، ثم الشام، والحجاز، ومصر، والإسكندرية. دامت رحلته ثلاثة سنوات قضى منها حوالي أربعة أشهر بالحجاز وما بقي قضاه متنقلاً ومقيماً في أشهر المراكز العلمية بمصر ودمشق، وتونس خاصة التي أمضى بها حوالي خمسة عشر شهراً. وبما أنّ طلب العلم هو الأولوية الثانية بعد فريضة الحج لم يضيّع ابن رشيد خلال رحلة الذهاب والإياب، أية فرصة دون السؤال عن أهل العلم في كلّ بلد حلّ به، وغالباً ما عبّر عن أسفه إذا مرّ من بلدٍ ولم يجد به ضالته[٢٤].

وصل ابن رشيد إلى مصر في الثالث من صفر عام ٦٨٥ هـ، وأثنى على الحفاوة التي استقبل بها المصريون الرّكب الحجازي المغربي، ولعلّ أهم ما لفت انتباهنا كيف أن ابن رشيد لم يقس حفاوة الضيافة بحسن الإقامة والطعام كما نجد لدى بعض الرحّالين، ولكنه

(٢٢) تقديم وتحقيق الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.

(٢٣) عادة ما يسلك حجاج الأندلس طريقين مختلفين أحدهما من ألمرية إلى تونس، والآخر من ألمرية إلى مرسى هنين قرب تلمسان. إلا أن ضياع الجزء الأول من رحلة ابن رشيد جعل المتتبع لمسارها لا يجزم أي الطريقين سلكها. باستثناء بعض الإشارات لدى المقري والتي تفيد أن ابن رشيد التقى بعض رجال العلم بتلمسان. الحسن الشاهدي، مرجع سابق، ج ١، ص. ١٥٥ نقلاً عن المقري. نفح الطيب، ج ٥، ص. ٢٧٤.

(٢٤) عندما حلّ بمدينة بُصْرى في الشام، تأسف لأنه لم يلق أحداً من أهل العلم.

قاسها بالفائدة العلمية عندما تحدث عن الشيخ أبو العزّ عزّ الدين الْحُراني، الذي كان مكلّفاً بلقاء الحجاج، فقال: "فلما استقر به المجلس وسأل عن أحوالنا، وشكر الله وحمده على بلوغ آمالنا، بدَره صاحبنا أبو عبد الله بن عاصم، فقال: يا مولانا أما تضيّف أصحابنا. فقال: نعم. فقال صاحبنا: الآن بإسماعهم بعض مسموعاتك. فأنعم بذلك. وهذا شأن القوم. حصراً على الإفادة والاستفادة"[٢٥]، بعد هذا اللقاء كشف ابن رشيد لقاءاته بشيوخ وأدباء مصر، رغم أن إقامته بها، لم تتعدّ الشهر ونصف الشهر، التقى خلالها حوالي ثلاثة وأربعين عالماً في كل من القاهرة والإسكندرية مفرقة بين الجزأين الثاني والخامس، أخذ عنهم جميعاً فذكر أسانيدهم وفتاويهم وأشعارهم وكتبهم، فحصّل من بعضهم على إجازات، وتردد على الدروس والمجالس العلمية في المدارس والمساجد، وبيوت المشايخ، بل حتى في الحمّامات كما ذكر وهو يتحدث عن نصير الْحُمّاني المنياوي والذي وصفه قائلاً: "الأديب البارع العذب المنازع الغريب الأمر، قصدته في حمّامه ليلاً. . حملنا إليه صاحبنا المحدث المسند المقيد أبو عبد الله بن عاصم الرّندي، نزيل مصر، فأملى علينا جملة من كلامه وقد استحضر جماعة من خدّامه بمصابيح في أيديهم"[٢٦]. ومما لا شك فيه أن ابن رشيد الذي وصفه معاصروه بعالم المغرب الحافظ قد استفاد وأفاد وهو بالمشرق فابن الخطيب، ترجم للعديد من أعلام المغرب والأندلس وتونس والمشرق اللذين عدّهم من تلامذة ابن رشيد.

جدول يلخص بعض اللقاءات العلمية لابن رشيد في القاهرة والإسكندرية

اسم الشيخ	مجال التواصل العلمي	الصفحة والجزء/ ٥
أبو العز عز الدين الحرّاني	سمع عليه جزءاً من آمالي القاضي أبي عبد الله الحسين بن هارون الضّبي وكتاب الجامع للبخاري من باب صوم يوم عرفة.	ص ٢٨٥/ ج ٥
جمال الدين ابن الظاهري	إمام محدث أخذ عنه الحديث المسلسل بالأوّلية (الراحمون يرحمهم الرّحمان، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في الأرض).	ص ٢٩٩/ ج ٥

(٢٥) ابن رشيد، ملء العيبة، ج ٥، ص. ٢٨٥ ـ ٢٨٦.
(٢٦) ابن رشيد، نفسه، ج ٥، ص. ٣٦٤.

قطب الدين القسطلاني	يصفه بالإمام المحدّث الصوفي سمع عنه في الحديث المسلسل بالأولية: أطعمني وسقاني.. إلخ. وسمع عليه صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي، والسنن الصغرى. الخ.	ص ٣٠٥/ ج ٥
الشيخ أبو صادق ابن الرشيد العطّار	لقيه عند العودة من الحج، ويصفه بالمحدّث المسند الصّدوق. سمعَ عليه جميع الأربعين حديثاً المروية بالأسانيد المصَرية، بالمدرسة الفاضلية بزقاق القناديل من مصر المحروسة.	ص. ٣١٦/ ج ٥
أبو الفتح ابن دقيق العيد	يصفه بمفتي المسلمين، شرف العلماء، يذكر أنه أجازه غير مرة جميع ما سمعه عنه، وما صنّفه وذكر أن من أهم مؤلفات هذا العالم: الاقتراح في بيان الاصطلاح كتاب في أصول علم التحديث والرواية.	ص ٣٢٥ ـ ٣٢٧/ج ٥
صواب الصلاحي	سمع عليه كتاب التوكّل لابن أبي الدنيا. وأجازه.	ص ٣٣١/ ج ٥
علم الدين العراقي	يصفه بالإمام العلامة الحافظ البليغ المفسّر، إمام أئمة البيان. وذكر من أهم مؤلفاته في علم البيان على كتاب الكشاف للزمخشري في مجلدين.	ص ٣٣٥/ ج ٥
الشريف شرف الدين الكَرعي	نعته بالإمام المفتي، لقيه بالمدرسة الطّيبرسية، مدرسة بالأزهر أنشأها علاء الدين طيبرس. يدرّس بها الفقه للشافعية. قرأ عليه شرحه لعقيدة المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية. كما ذكر أنه باحثه في تحقيق الكسب. والذي يعني تجديد المؤثر في فعل العبد. وهو أمْرٌ اختلف فيه المتكلّمون. فذهب الجبرية إلى القول بأن المؤثر في فعل العبد هي قدرة الله تعالى. ولا قدرة للعبد أصلاً. وقال الأشعري أن المؤثر هو الله ولكن للعبد كسباً في الفعل، وهكذا.	ص ٣٤٣/ ج ٥
الشيخ زين الدين بن الجمّيزي السكّان	لقيه بجانوته وأجاز له لفظاً.	ص ٣٥٣/ ج ٥
الجمال المغربي	يصفه بالأديب الفاضل، كتب عنه بعض رسائله.	ص ٣٥٥/ ج ٥
وجيه الدين أبو محمد بن خير	لقيه بالإسكندرية وسمع عليه وأجازه الجزء الخامس والسادس من أحاديث الخلَعي.	ص ٣٨١/ ج ٥
شرف الدين بن الصّواف	سمع عليه وأجازه في الجزء العاشر من الخلَعيات.	ص ٣٨٩/ ج ٥

أبي الحسن التّجّاني (اللقاء الثاني بالإسكندرية)	ورد على الإسكندرية من تونس وأقام بها، وأصبح من العدول الموثقين بها. أجاز له في التاريخ.	ص ٣٩٥/ ج ٥
ابن الجابي البزّاز	أنشده بعض الأشعار	ص ٤٠٣/ ج ٥

يوضح هذا الجدول كيف كان ابن رشيد حريصاً في ذهابه وإيابه عبر مصر، على لقاء علمائها وأدبائها، وتجديد اللقاء بهم، فلم يترك فضاء خاصاً بالعلم إلا قصده فكانت مناظراته العلمية كلها من سماع، وإجازات، ونقولات تدور في فلك العلوم الشرعية والأدبية مما يدفعنا إلى ختم هذا العرض بمجموعة من الملاحظات التي تنطبق، مع بعض الاختلافات، على مجموعة من الرحلات الحجازية المغربية، حتى تلك التي كتبت بعده بقرون.

- استنتاجات عامة

هذا المسار العلمي الذي سلكه ابن رشيد إبّان رحلته الحجازية والذي بدأ في المغرب ثم الأندلس وبلغ ذروته في المشرق، كان أمراً طبيعياً ومشروعاً حتى بالنسبة لمن كان في عداد العلماء ببلاده. فالشرق عندهم هو منبع كل فضيلة ومنه شع قبس العلوم والمعرفة، ولهذا كانت الرحلة إلى الحجاز منتهى السفر على حد تعبير ابن خلدون، دون الدخول في مزايدات الأفضلية العلمية بين غرب العالم الإسلامي وشرقه.

إن الرحلة الحجازية المغربية خلال العصر الحديث، تعكس بعض خصوصيات الثقافة المغربية، والمشرقية في آن واحد. فقد اتضح أنه، كلما تعلق الأمر بالعلوم الشرعية، فإن المنهج يبقى واحداً والمضمون أيضاً. فقد اعتمد معظم الرحالة على منهج الرّواية الذي يعتمد على نقل العلوم والاهتمام بصحة متنها وسندها. فكان شيوخ العلم الديني لا يحصّلون مكانتهم إلا بربط علومهم بسند عال. فأبو سالم العياشي[٢٧]، الرحالة المغربي الشهير، خلال القرن السابع عشر كتب يقولً: "لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء"، فقد كثرت الأسانيد وتمركزت العلوم كلها حول العلوم الشرعية. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على الدور الذي لعبه الدين الإسلامي في تشكيل الثقافة الإسلامية التي انبثقت عن القرآن والسنة (الحديث خاصة)، ثم تطورت العلوم الأخرى التي تتعلق بهما كعلم القراءات والتفسير بالنسبة للقرآن، وعلم الحديث بالنسبة للسنة وعلم الفقه الذي تأسس

(٢٧) هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن يوسف العياشي (ت ١٠٩٠ هـ/ ١٦٧٩ م)، فقيه، صوفي، شاعر، ناثر، رحالة مشهور، صاحب الرحلة المعروفة: ماء الموائد، وضع فهارسها محمد حجي، الرباط، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م (جزءان).

استجابة لتطور المجتمعات الإسلامية وحاجتها لاستنباط الأحكام، ثم تواكبها العلوم الأدبية وخاصة علم اللغة نظراً لارتباطه الوثيق بالعلوم الشرعية. فقلّما يتم الحديث في هذه الرحلات عن العلوم العقلية[٢٨]، وكان العلم العقلي الوحيد الذي يرد في بعضها هو علم الفلك الذي استمر في مجال الاهتمام بسبب الخدمات التي كان يسديها في أداء الشعائر الدينية، كتحديد القبلة وأوقات الصلاة ورؤية الهلال.

ـ استمرت الرحلة الحجازية، حتى بعد عصر ابن رشيد، في ربط المغرب بالمشرق، إلا أنها كانت تتأثر بتقلبات الأحوال السياسية، فبعد وفاة السلطان المريني أبي عنان عام ٧٥٩ هـ/ ١٣٥٧ م[٢٩]، أصيبت علاقات المغرب والمشرق بنوع من الفتور بسبب الفتن والاضطرابات التي ابتلي بها الغرب الإسلامي عامة، والتي أثرت على أمن السبل وما كان يصاحبها من مخاطر تصبح معطّلة لفريضة الحج في نظر بعض الفقهاء[٣٠]. فقد أشار ابن خلدون بقدر من التأسف إلى انطفاء النشاط الفكري والعودة لنمط الحياة التي يغلب عليها طابع الانتماءات الفئوية والصراعات على السلطة. ولم تكن الحياة في الشرق العربي أفضل حالاً من غربه. ومع حلول القرن التاسع هـ (١٥ م) تعرض المغرب لهجمة الاحتلال الإيبري لسواحله المتوسطية والأطلسية، فأصبحت فتاوى علماء المغرب تقول بأفضلية الجهاد على الحج، وأقدم بعض طالبي العلم على تأجيل الرحلة الحجية والعلمية، وتفرغوا للجهاد في الثغور المحتلة. وقد سجل المؤرخ محمد حجي انعكاس هذا العامل على الحياة الفكرية بالمغرب بقوله: "انتقل المغرب من نشاط القرن الثامن (١٤م) عصر ابن البناء المراكشي، وابن رشيد السبتي، وابن أبي زرع الفاسي، وابن بطوطة الطّنجي، مباشرة إلى خمول القرن التاسع (١٥ م) حيث لا نجد أي اسم لامع لأديب أو مؤرخ أو رحّالة أو حتى مؤلف تراجم"[٣١].

لكن المغرب استطاع أن يتجاوز أزمة هذا القرن، بعدما تأسست الدولة السعدية فاستعادت مراكش، معظم القرن العاشر (١٦ م) نشاطها العلمي في عهد السلطان أحمد

(٢٨) هذه الملاحظة لا تعني غياب العلوم العقلية، لقد ظلت في تواجد مستمر إلى جانب العلوم الشرعية ضمن نسق واحد في الثقافة الإسلامية. وظل حملة كل صنف من العلوم يجتهدون في إظهار ذواتهم بوصفهم حملة العلم الحق والمكانة الأسمى في الثقافة الإسلامية.

(٢٩) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج ٢، ص. ٤٨.

(٣٠) العبدري، الرحلة المغربية، ص. ٣٣.

(٣١) محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٦، ج ١، ص. ١٧٧.

المنصور الذهبي (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣ م)، فتكاثر العلماء وطلبة العلم، وكثر التأليف في علوم شتى، وامتلأت خزانته بنفائس الكتب معظمها كتبها نسّاخون هواة ومحترفون في مراكش، والقاهرة، ومكة، والمدينة والقسطنطينية. ونشطت من جديد الصلات الثقافية بين المغرب والمشرق[٣٢]، ومن المغاربة الذين ذاع صيتهم في بلاد الشام العالم الحسن بن قاسم الدّرعي الذي خرج حاجّاً عام ١٠٠٤ هـ/ ١٥٩٦ م، واستقر به المقام ببادية الشام فأحبّه أهلها وأقبلوا على علمه. وعندما أنشد يوماً:

فلا ذاق من صاب التغرب من بكى على مغربي ضاع بين مشارقة

أجابه العالم نجم الدين الغزي مؤلف كتاب الكواكب السائرة معاتباً "ما ضعت بين المشارقة بل شاع ذكرك وذاع نشرك وسما قدرك"؛ وبالمقابل استقطبت مساجد مراكش وتارودانت (المحمدية) علماء من المشرق معبرين عن مساندتهم المعنوية لهذه الدولة التي ازدهرت في المغرب الأقصى مستقلة عن النفوذ التركي الذي أثر في أهم مراكز الثقافة العربية بالمشرق عندما جعل القسطنطينية داراً للخلافة الإسلامية. وبعد وفاة أحمد المنصور الذهبي انغمس المغرب من جديد في الاضطرابات السياسية وعاد الاحتلال الأجنبي إلى سواحله، فتقوى رد الفعل الديني الشعبي ممثلاً في التصوف، واختلف دور العلماء بين منخرط في الحياة السياسية كأشياخ الزاوية الدلائية، وأشياخ زاوية إليغ بسوس، وبين زاهد في الدنيا. فخرج بعضهم بحثاً عن العلم وانتهى بهم الأمر في الحجاز حيث يجدون العزاء والتسلية، وهو ما يفسر عودة تدوين الرحلة الحجازية بقوة خلال هذا القرن والقرن الذي يليه (١١ ـ ١٢ هـ/ ١٧ ـ ١٨ م)، ومنها رحلة أحمد بن ناصر الدرعي"[٣٣]، ورحلة عبد المجيد الزبادي المنالي[٣٤]، لكن أشهرها هي رحلة أبو سالم العياشي المعروفة بماء الموائد يقول عنها صاحبها "قصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم لا كتاب سمر وفكاهة وإن وُجد الأمران فيها معاً فذلك أدعى لنشاط النّاظر فيها سيما إذا كان صاحب تلوين وأما صاحب التمكين، فلكل شيء عنده موقع ونفع لا يوجد في غيره"، وقد جاءت هذه الرحلة موسوعية تحتوي على تراجم عدد كبير من علماء المشرق خاصة. ولعلّ أهمّ ما يميزها تلك الصبغة الصوفية التي جعلت أفعال وأقوال مؤلفها تدل على نهجه

(٣٢) كتب عبد الله كَنون يقول "كان رجال البلاط السعدي يذهبون بانتظام إلى المشرق وفي رواحلهم صناديق مملوءة ذهباً ليعودوا بها مملوءة كتباً". النبوغ المغربي، ص. ٨٠ ـ ٨١.
(٣٣) أنظر جدول الرحلات.
(٣٤) أنظر جدول الرحلات.

الصوفي الشاذلي. وذاك مجال آخر من مجالات التكامل المعرفي بين المغرب والمشرق، لن يتسع له العرض.

وفي الختام نسجل أنّ الرحلة الحجازية المغربية، استمرت وإلى وقت متأخر، في تحقيق التفاعل بين ما يجري في الساحة الثقافية بالمشرق من جهة وبين ما هو حاصل في المغرب، وحتى في الأندلس بالنسبة للحقب التاريخية المتقدمة. إلاّ أن هذه النماذج التي عرضنا لها لا تعكس بالضرورة كل جوانب الحياة الفكرية، بل بعضاً منها وخاصة كل ما له صلة بالثقافة الدينية، لأسباب أهمها: أن "الرحلة" تحددت أهدافها منذ الانطلاقة لأداء فريضة الحج، فتنغمس ذات المؤلف في التنقيب عن كل ما من شأنه تعميق الثقافة الدينية لديه، وكأنها جزء من شعائر الحج. وتبقى هذه المتون أيضاً، تعبيراً صادقاً عن مؤلفيها فهي تعكس ما هم قادرون عليه من نقل وتحليل ومناظرة، فالرحلة بالأساس سيرة ذاتية.

جدول بعض الرحلات الحجازية المغربية

الرحّالة	نوع الرحلة	عنوان الرحلة	تاريخ الوفاة
ابن رشيد السبتي	حجازية	ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة	ت ٧٢١ هـ
العبدري	حجازية	تعرف بالرحلة المغربية . قام بها عام ٦٨٨ هـ قصد أداء الحج وطلب العلم	؟
ابن بطوطة	حجازية سياحية علمية	تحفة النظّار في غرائب الأمصار	ت ٧٧٥ هـ
أبو سالم العياشي	حجازية	ماء الموائد أو الرحلة العياشية رحلة موسوعية في علم الشريعة والتصوف ومناسك الحج	ت ١٠٩٠ هـ/ ١٦٨٢ م
أحمد محمد الهشتوني	حجازية	هداية الملك إلى بيت الله الحرام والوقوف بالمشاعر العظام	؟
أحمد بن ناصر الدرعي	حجازية	كتبها بعد حجّته الرابعة وتعرف بالرحلة النّاصرية	ت ١١٢٩ هـ/ ١٧١٧ م
عبد المجيد الزبادي المنالي	حجازية صوفية	بلوغ المرام إلى بيت الله الحرام	ت ١١٦٣ هـ/ ١٧٥٠ م
محمد بن عثمان المكناسي	حجازية سفارية	إحراز المعلّى والرّقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب	ت ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٩ م
أبو القاسم الزياني	حجازية سفارية سياحية	الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برّاً وبحراً	ت ١٢٤٩ هـ/ ١٨٣٣ م